الجذور التاريخية للعلاقات المتبادلة بين شمال وغرب إفريقيا

د. عبد الرحمن قدوري
جامعة تلمسان

الملخص:

شهدت الضفتان الشمالية والجنوبية للصحراء الكبرى تواصلا حضاريا عبر عصور طويلة، شمل مجالات سياسية وتجارية وثقافية، ساهم بشكل كبير في نقل مختلف المؤثرات الفكرية والاجتماعية عبر الصحراء الكبرى، وتحاول الدراسة تقديم موجز للروابط التاريخية التي جمعت السكان والقبائل من شمال الصحراء مع نظرائهم من جنوبها، ساعين بالقدر الكافي درء الشبهات والرد على الافتراءات التي دأب الاستعمار على الترويج لها من قبيل أن العرب كانوا تجار رقيق يسعون إلى نهب ثروات إفريقيا وكانوا سبباً في تخلفها عبر قرون خلت، والتاريخ يثبت عكس ذلك فقد عرفت منطقة غرب إفريقيا أزهى عصورها في الفترة التي أعقبت انتشار الإسلام بالمنطقة، واستمر ذلك حتى مطلع القرن السادس عشر الميلادي حيث برزت الحملات البرتغالية الأولى على الساحل الغربي لإفريقيا، وكان ذلك أول اتصال مباشر مع الأوروبيين، واليوم تبرز أهمية إحياء الروابط التاريخية والثقافية بين المنطقتين في ظل واقع إقليمي ودولي يتجه نحو مزيد من التكتلات السياسية والاقتصادية.

الكلمات المفتاحية: العلاقات، غرب إفريقيا، الصحراء الكبرى، بلدان المغرب.

Abstract:

Saw the northern and southern Sahara desert shores of continuity of civilization over long periods, including political, commercial and cultural areas, contributed significantly to the various intellectual and social effects across the Sahara Desert transfer, the study attempts to provide a summary of the historical links that the people and tribes gathered north of the Sahara with their counterparts from the south , seeking sufficiently ward off suspicions and post slanders has been colonialism to promote such that the Arabs were

slave traders seeking to loot Africa's wealth and they were the cause of underdevelopment through the centuries, and history proves the opposite has been identified West Africa brighter ages in the period following the spread of Islam in the region, and continued until the early sixteenth century with the emergence of the first Portuguese campaigns on the west coast of Africa, and was the first direct contact with the Europeans, and today highlights the importance of reviving the historical and cultural ties between the two regions in light of regional and international reality is moving towards more political blocs and economic.

Key words: Relations, West Africa, the Sahara, the Maghreb countries.

تمهيد:

إن العلاقات العربية الإفريقية قديمة ترجع إلى أكثر من ألفي عام، شملت مجالات وميادين عديدة بشريا، تجاريا، وثقافياً...، ولعل الصلة بين سكان شبه الجزيرة العربية وإفريقيا أقدم من ذلك بكثير فقد كانت إفريقيا والشرق العربي رقعة واحدة حتى انفلقت قشرة الأرض ففصل البحر الأحمر بينهما، هذا الأخير رغم وعورة مسالكه لم يقف حائلاً دون الاتصال البشري. كما أن قدراً كبيراً من ذلك الاتصال كان ميسوراً عن طريق مضيق باب المندب وشبه جزيرة سيناء، وكانت سواحل المحيط الهندي الافريقية والعربية تمثل نقاط تواصل مهمة بين المنطقتين، وفي المحيط الهندي استغلت السفن العربية الرياح الموسمية لتسهيل رحلاتها، بينما كانت الابل وسيلة التواصل البري عبر سيناء وحتي سواحل المحيط الأطلسي .

1- ماهية العلاقات العربية – الأفريقية؟

يُقصد بهذا الاصطلاح في الأدبيات السياسية العلاقة بين الدول العربية الأعضاء في الجامعة العربية بشقيها الإفريقي والأسيوي مع الدول الأعضاء في منظمة الوحدة الإفريقية، ومن بعدها الاتحاد الإفريقي، ومعنى ذلك أن الحديث لا ينصرف إلى العلاقة بين الدول العشر العربية ذات العضوية المزدوجة في المنظمتين، والدول الإفريقية؛ لأن ذلك يدخل في إطار العلاقات الإفريقية-الإفريقية التي تبحث في إطار

المنظمة الإفريقية، بل إن الاستعمار كان حريصًا على تقسيم القارة السمراء بين دول الشمال العربي من ناحية، والدول الإفريقية جنوب الصحراء من **ناحية ثانية.**

لذا فإن هذا التقسيم يعمد إلى التمييز **وإثارة النعرات ب أبناء القارة الواحدة،** وبالتالي فإن هذه العلاقات تشير إلى العلاقات بين الدول الإفريقية بشقيها الشمالي العربي والجنوبي الزنجي"مجازا" **من ناحية، والدول العربية الآسيوية من ناحية ثانية**[1]**.**

2- أثر انتشار الاسلام على العلاقات العربية الافريقية:

أدى ظهور الاسلام في القرن السابع الميلادي إلى ازدياد وشائج الاتصال العربي الافريقي، **فقد أمد الإسلام العرب بغطاء فكري وروحي ساعدهم على خلق وحدة وطنية و قيق ضة علمية وثقافية، ومنذ البدء صار الإسلام الركيزة الأساسية** للثقافة العربية الجديدة، كما أصبحت اللغة العربية لغة القرآن الكريم، وعاء الفكر **الاسلامي والثقافة الاسلامية**[2]**. و ت راية الاسلام خرج العرب صوب الشرق والغرب** والشمال، وتمكنوا في زمن وجيز من نشر نفوذ الاسلام في أجزاء كبيرة من القارة **الافريقية**[3]**.**

وقد أدى التطور العظيم في حياة العرب إلى حدوث نقلة نوعية في تاريخ العلاقات العربية الإفريقية، فمع توطد دعائم التعامل التجاري والهجرات البشرية قام العرب بدور ايجابي في نشر العقيدة الاسلامية وبسط نفوذها السياسي في إفريقيا**.**[4]

وكانت هجرة سلم للحبشة أول اتصال رسمي للإسلام بإفريقيا، وهناك وجد المسلمون الحماية والرعاية في كنف ملك الحبشة المسيحي، وبعد موجة الفتوحات الاسلامية للشمال الإفريقي توالت هجرة القبائل العربية وزاد حجمها، وفي تلك المنطقة تأصلت جذور الحضارة الاسلامية والثقافة العربية، وأصبح الشمال **الإفريقي وسو**دان وادي النيل جزءاً لا يتجزأ من الأمة العربية**.** وقد أظهر العرب في هذه المنطقة، وهم مادة الإسلام، خصائص فريدة في التأثير على المجموعات التي

خالطوها من مصريين وبربر ونوبيين وأعطى العرب هذه الشعوب دينهم ولغتهم وكثيرا من مظاهر ثقافتهم.[5]

ومع أن العرب ما جاؤوا أصلاً إلى إفريقيا كدعاة متفرغين للدعوة إلا أن نشرهم للثقافة العربية كان يلازمه نشر للعقيدة الاسلامية، وكان للتجار العرب والبدو دور رائد في بذر النواة الأولى لتعاليم الإسلام في المجتمعات الإفريقية.

ومن الشمال الإفريقي توغلت المؤثرات الاسلامية العربية عبر الصحراء إلى بلاد السودان حيث نشأت السلطنات السودانية الاسلامية التي جمعت في نظمها السياسية بين أنماط محلية ونظم إسلامية، وفيها تفاعلت الثقافة العربية الاسلامية مع المؤثرات الإفريقية، ونتيجة لهذه الجهود اتسعت رقعة الإسلام حتى شملت معظم الجز ء الشمالي من القارة كما غلبت على بعض الجيوب في السواحل الشرقية من الجزء الجنوبي، وكان لهؤلاء المسلمين دور بناء في تاريخ المنطقة وحضارتها، كما صاروا يشكلون مركز ثقل سياسي مهم فيها، وقد ظلوا على صلة وثيقة بالوطن العربي، في المشرق وشمال إفريقيا وذلك بفضل الصلات الدينية والثقافية والبعثات التعليمية والمبادلات التجارية قديماً وحديثاً .

3- تجارة القوافل بين شمال وغرب افريقيا:

من العوامل التي ساعدت على توجه العرب جنوباً نحو السودان الغربي أنها كانت "أرض الذهب" فضلاً عن وجود منتجات البيئة الاستوائية وشبه الاستوائية من صمغ وريش النعام وبيض وجلود وعاج ورقيق.... . كذلك فقد توفرت لمنطقة المغرب العربي شمال الصحراء موارد هامة قدمتها في مقابل منتجات السودان الغربي، لا سيما الملح، حيث لعب دوراً هاماً في تعميق الاتصال بين أهالي السودان والمغاربة، وعن طريق المغرب انتقلت تجارة السودان الغربي إلى أوروبا[6] .

وقد شكلت مسالك القوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى جسور تلاقح حضاري عميق الأثر بين الشعوب الافريقية شمال الصحراء وجنوبها، ونسجت بين

هذين الجزءين عرى اقتصادية واجتماعية وثقافية وثيقة على مر الزمن، ونشطت تيارات التبادل الحضاري عبر الصحراء بشكل لم يسبق له مثيل في الفترة الممتدة من القرن 8 إلى القرن 16م، وتعددت المحاور التجارية وعرفت فترات ازدهار وانحطاط تبعاً للظروف الطبيعية والاقتصادية والسياسية والأمنية في المنطقة[7].

4- التفاعل الثقافي بين العرب وإفريقيا جنوب الصحراء:

لقد ترتب على وصول المسلمين الأفارقة إلى السلطة ووجود عائلات مسلمة على رأس الدول الإفريقية، توطيد علاقات تلك العائلات بالدول الإسلامية في بقية العالم الإسلامي، وذلك عن طريق التجارة فكان يرد الكثير من التجار و العلماء من شمال إفريقيا، وكان الملوك يستجلبون لهم الكتب، وذاعت في السودان شهرة عدد من العلماء وكان لهم أثر بارز في إثراء الحياة الثقافية والفكرية وفي ربط غرب إفريقيا بشمالها. وكان للطلاب إقبال على العلم دفعهم للهجرة خارج بلادهم إلى الحجاز ومصر وبلاد المغرب، وقد زاد عدد طلاب بلاد السودان الغربي في مصر حتى أصبح لهم رواق في الأزهر باسمهم وهو "رواق التكرور" [8]، وقد نال العلماء في بلاد السودان مكانة مرموقة فهابهم السلاطين وعملوا على إرضائهم ويقول أحمد بابا التنبكتي عن الشيخ محمد بن عمر بن محمد اقيت:" لا يخاف في الله لومة لائم يهابه السلاطين في دورهم ويزورونه في داره ولا يقوم لهم ولا يلتفت إليهم يهادونه بالهدايا العظام". [9]

وتشهد قائمة المؤلفات التي خلفها علماء السودان بالعربية وباللغات الإفريقية وما بقي من آثار معمارية على درجة إسهام الممالك السودانية في الحضارة الإسلامية، وقد بلغ الازدهار الحضاري أقصاه في بلاد السودان في مملكة صنغاي "777-1000هـ/1375-1591م" ولكن بعض الأحداث الكبرى أثرت على حيوية التواصل الاقتصادي والتجاري عبر الصحراء الكبرى[10].

5- الصراع العربي الأوروبي على منطقة غرب افريقيا:

يرى بعض الباحثين أن حملة المنصور الذهبي وغزوه لصنغاي عام 1591م، وما تبع ذلك من سقوط تلك السلطة كان سبب ما حل بتلك المنطقة من انهيار سياسي وتدهور اقتصادي وتخلف حضاري [11]، ولكن ما حدث كان أحد مظاهر التدهور العام الذي حلّ بحوض البحر الأبيض المتوسط منذ أول القرن السادس عشر نتيجة للانقلاب التجاري العظيم الذي نتج من سيطرة البرتغاليين على مصادر التجارة الشرقية، وانتقالها من الطريق البري عبر الوطن العربي إلى الطريق البحري عبر رأس الرجاء الصالح، وقبل التدخل البرتغالي كان جزء كبير من تلك التجارة يشق طريقه إلى مصر بواسطة التجار العرب ومنها إلى المدن الإيطالية [12].

وبسبب ذلك انتقل مركز الثقل الاقتصادي أو الرأسمالية التجارية من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى البرتغال أولاً ثم إلى باقي أقطار غربي أوروبا تدريجياً. وامتدت آثار ذلك التحول إلى أواسط بلاد السودان وغربي إفريقيا حيث انتقل جزء كبير من تجارة تلك المنطقة تدريجياً من مراكزه المنبثة على أطراف الصحراء إلى المناطق الساحلية، في الجنوب والجنوب الغربي، والتي يسيطر عليها الأوروبيون.

أدى التدخل البرتغالي إلى اندماج التجارة الإفريقية في الاقتصاد العالمي الذي تسيطر عليه أوروبا الغربية، واكتملت تلك السيطرة بوقوع أجزاء كبيرة من المناطق الساحلية في افريقيا والوطن العربي تحت السيطرة الاستعمارية حيث اندمجت المنطقتان في النظام الرأسمالي العالمي، ونتيجة لهذا التدخل الأوروبي انخفض مستوى العلاقات الاقتصادية عبر الصحراء بين العرب والأفارقة وإن لم تنته كلياً، وظل مستوى العلاقات الدينية والثقافية كما هو حتى مطلع القرن العشرين.[13]

6- تأثير الوجود العربي الإسلامي في غرب افريقيا:

ترك الوجود العربي الإسلامي في بلاد السودان الغربي آثاراً عظيمة أهمها ظهور مراكز عدة للثقافة العربية الاسلامية، كما انتشرت اللغة العربية في هذه المناطق بفضل انتشار الإسلام فيها، وظهر عدد من الفقهاء وعلماء الدين وأئمة المساجد، درّسوا في المدارس القرآنية وفي الخلوات وفي الجوامع، ودرّست اللغة العربية في جميع مراحل التعليم، هذا فضلا عن انتقال فن العمارة الإسلامية، من فنون البناء والنحت والنقش على الأبنية، ولم يقتصر التأثير العربي الإسلامي في هذه النواحي، بل تعداه إلى شيوع التأثيرات الاجتماعية فانتقلت العادات والتقاليد والفنون الشعبية، ونظام الأسرة، وحتى الألبسة والأزياء.

وقد لخص "جرانفيل" وزير الدولة في أول حكومة وطنية في الكونغو العلاقات المتميزة بين العرب وإفريقيا ما وراء الصحراء بقوله:" لقد زوّر البلجيكيون كل شيء في الكونغو... فليست مدينة ستانلفيل سوى مدينة تيبوتيب[14] القديمة التي أقامها قبل وصول ستانلي، وليس العرب المسلمون –كما قالوا لنا- تجار رقيق، وإنما هم تلك الموجة الانسانية التي اختلطت بنا وصاهرتنا وتركوا لنا على أرضنا دماءهم والبلجيكيون يحصدونهم بالأسلحة الحديثة، وليس أعز علينا شيء سوى هذا الدم العربي الذي سال في الماضي كما سال ويسيل دمنا الآن على أرضنا.....على أيدي نفس أعداء العرب في القرن الماضي....".[15]

خاتمة:

عموماً فإن مختلف التطورات والتفاعلات بين ضفتي الصحراء، قد ساهمت بشكل كبير في نقل مختلف المؤثرات الحضارية والثقافية والفكرية من الشمال إلى إفريقيا كلها وبشكل خاص في المنطقة الغربية منها، حيث اصطبغت بالطابع العربي الإسلامي، ويعتبر انتشار اللغة العربية في تلك الربوع، واتباع المذهب المالكي وقراءة القرآن على قراءة ورش عن نافع، وانتشار فنون العمارة الأندلسية الاسلامية خير دليل على ذلك.

وفي ظل المستجدات الدولية وما يرتبط بها من دور متنام للتكتلات والتجمعات الاقتصادية, تبرز أهمية تدعيم التعاون العربي الأفريقي على المستوى الحضاري استغلالا للمشتركات الحضارية والبشرية والتاريخية بين المجموعتين.

الهوامش:

1- بدر حسن شافعي: "تداعيات قمة الكويت على مسار العلاقات العربية الإفريقية"، مجلة السياسة الدولية، العدد 194، القاهرة اكتوبر 2013.
2- مسعود علي، **تأثير الشمال الافريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي**، طرابلس: منشورات جمعية الدعوة الاسلامية،2003. ص 58.
3- محمد أحمد خلف الله وآخرون، **العرب والدائرة الافريقية** ، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2005. ص20-21
4- المرجع نفسه ص 28
5- نفسه ص 29.
6- الهادي المبروك الدالي ، **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء**، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1999. ص 294.
7- للمزيد انظر: ولد السعد محمد المختار، **"مسالك القوافل ودورها في التواصل الثقافي بين طرفي الصحراء خلال القرن 19م"**، طريق القوافل، منشورات المركز الوطني

للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الانسان والتاريخ، الجزائر 2001، ص 99-112.

8- سيد فليفل، "الخلفية التاريخية للعلاقات العربية الافريقية عبر الصحراء الكبرى" ندوة العلاقات العربية الافريقية، طرابلس: جمعية الدعوة الاسلامية العالمية، 1999. ص 58.

9- يوسف فضل حسن وآخرون، العرب وافريقيا، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ومنتدى الفكر العربي، 1987. ص 41.

10- جاسم ظاهر، افريقيا ما وراء الصحراء من الاستعمار إلى الاستقلال، القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ب ت ن، ص 61

11- سيد فليفل، مرجع سابق، ص 66

12- يوسف فضل حسن، مرجع سابق، ص43.

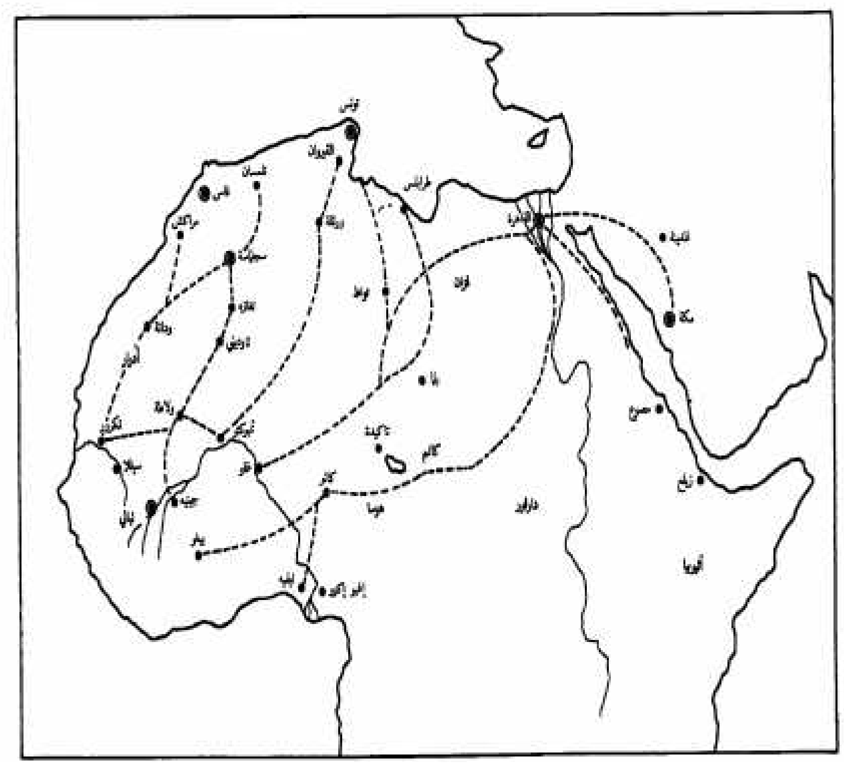
13- يوسف فضل حسن، مرجع سابق، ص 41.

14- أقام مدينة تيبوتيب محمد بن سيد المشهور بتيبوتيب، وهو حامد بن جمعة المرجبي من أشهر التجار العرب الذين أسهموا في بسط النفوذ العربي في الكونغو، تمكن من السيطرة على المنطقة الواقعة جنوب بحيرة تنجانيقا ومروي، وفي عام 1870م ضم اجزاء كبيرة من روافد نهر الكونغو وصار يتمتع بسلطات سياسية من فرض للضرائب وتعيين للحكام وحل للمشاكل بين الوطنيين، ولكن من تأمين نفوذ سلطان زنجبار الاقتصادي على المنطقة بين 1883-1886، ولكن نفوذه المنفرد لم يدم طويلا اذ نازعه فيه البريطانيون والبلجيكيون، وباعتراف الدول الاستعمارية في مؤتمر برلين 1885م، بدولة الكونغو الحرة طرد المرجبي واستولى الملك البلجيكي ليوبولد على تجارته. انظر يوسف فضل ص 35.

15- جاسم ظاهر، مرجع سابق، ص 82.

قائمة المراجع:

1. الدالي الهادي المبروك ، **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء،** القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1999.
2. المختار ولد السعد محمد ، **"مسالك القوافل ودورها في التواصل الثقافي بين طرفي الصحراء خلال القرن 19م"،** طريق القوافل، منشورات المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ، الجزائر 2001.
3. فليفل سيد ، **"الخلفية التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية عبر الصحراء الكبرى"** ندوة العلاقات العربية الإفريقية، طرابلس: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 1999.
4. علي مسعود ، **تأثير الشمال الإفريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي،** طرابلس: منشورات جمعية الدعوة الإسلامية،2003.
5. خلف الله محمد أحمد وآخرون، **العرب والدائرة الإفريقية** ، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2005.
6. حسن يوسف فضل وآخرون، **العرب وإفريقيا،** بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ومنتدى الفكر العربي، 1987. ص 41.
7. ظاهر جاسم ، **إفريقيا ما وراء الصحراء من الاستعمار إلى الاستقلال،** القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ب ت ن.
8. شافعي حسن : "تداعيات قمة الكويت على مسار العلاقات العربية الإفريقية"، **مجلة السياسة الدولية،** العدد 194، القاهرة اكتوبر 2013.



9. ملحق: الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر ميلادي

المرجع: نياني ج ت ، تاريخ إفريقيا العام، المجلد 4، اليونسكو، 1988.